تاريخ الإرسال: 2011/01/17 - تاريخ النشر: 2011/06/20

النظرية الاجتماعية بين العلم و الفلسفة

الأستاذ زروخي الدراجي
قسم العلوم الاجتماعية
جامعة زيان عاشور بالجلفة

رغم أن علم الاجتماع انفصل عن الفلسفة و أصبح علما قائما بذاته، إلاّ أن الشكوك قامت حول هذا العلم، و لم يكتسب علم الاجتماع المصداقية العلمية لافتقاده لخصائص العلم و الروح العلمية و احتواء دراسته على جانب كبير من الفلسفة ، وما يؤكد ذلك تأخر علم الاجتماع في انفصاله عن الفلسفة ، و سنبين من خلال هذا الطرح مجمل الصعوبات التي جعلت علم الاجتماع يفتقد نوعا ما للمعايير العلمية التي تتمتع بها العلوم الطبيعية ، ومدى ارتباط الدراسات السوسيولوجية بالفلسفة و هذا ليس انتقاصا من قيمة علم الاجتماع ، و إنما إشادة بصعوبة دراسة الظاهرة الاجتماعية دراسة علمية ، واعتراف بالمجهودات الجبارة التي يبذلها علماء الاجتماع من اجل السيطرة على الظاهرة الاجتماعية ، وحددنا هذه الصعوبات في النقاط التالية :

1 ـ المفاهيم:

دقة العلم مستوحاة من دقة مفاهيمه، و يبقى الحديث عن دقة المفاهيم في العلوم الاجتماعية بصفة عامة و علم الاجتماع بصفة خاصة غير وارد، فعلماء الاجتماع اختلفوا في تحديدهم لمفهوم علم الاجتماع، و هذا ما أقر به العديد من المفكرين و من

بينهم المفكر الأمريكي المعاصر كريشمان كومار بقوله " و لا يستطيع المرء بالطبع طلب الدقة العلمية البالغة عند التطرق إلى المفاهيم المتعلقة بالعلوم الإنسانية إلاّ إذا كان فلسفيا مؤمنا تماما بالنظرة الوضعية التي لا تعنى سوى بالظواهر و الوقائع دون أي تفكير تجريدي وجميع مفاهيم العلوم الإنسانية حسب العبارة المبجلة " قابلة جوهريا للجدل "[1] .

و يظهر التباين في تحديد مفهوم الاجتماع من خلال التعارف التي أوردها كل من ابن خلدون و أوجست كونت و دوركايم، فلكل منهم تعريف خاص بعلم الاجتماع. فقد عرفه ابن خلدون بقوله " إنه ذو موضوع و هو العمران البشري و الاجتماع الإنساني "[2] . أما أوجست كونت(A.Comte) فقد عرفه بقوله "هو دراسة قوانين و ظواهر المجتمع"[3] . في حين عرفه دوركايم(Durkhiem) بقوله " علم النظم الاجتماعية الذي يبحث في طرق نشأتها و وظيفتها "[4] .

فهل يمكن بعد هذا التباين في المفاهيم أن نتحدث عن الدقة المفهومية لعلم الاجتماع ؟

2 – الوضعية والحتمية :

يتفق العلماء على أن الوضعية هي إرجاع الظاهرة إلى أسبابها الحقيقية، حتى نتمكن من استئصال الظاهرة و تقنينها، لكن هل هذا الأمر متاح في دراسة الظواهر الاجتماعية على النحو الذي تعرفه العلوم الفيزيائية ؟

نستطيع أن نتعرف على بعض أسباب الظاهرة الاجتماعية، لكن الإلمام بها جميعا يعد أمرا مستحيلا لأن علم الاجتماع حينما يعمل على دراسة و فهم الحياة الاجتماعية، تختلف لديه مداخل المعالجة باختلاف وجهات النظر. ففي بعض الأحيان يركز الباحث على دراسة السلوك الإنساني المتعلق بالقيم، و في أحيان أخرى يركز على المنجزات التكنولوجية وعلاقتها بمعالم الثقافة، و تارة يوجه الباحث نظره إلى النظم الاجتماعية التي تحرك النشاط الاجتماعي، بينما يفضل بعض الباحثين التركيز على ثقافة المجتمع السائدة وعلاقتها بالظواهر الاجتماعية.

يظهر إذن أن البحث عن أسباب الظاهرة الاجتماعية متباين و قد لا يمكن إحصاء هذه الأسباب و لا يمكن حصر زواياها، و عين العالم في هذا المجال لا يمكن أن تبصر كل ما يتعلق بالظاهرة الاجتماعية، بل إن عيون العلماء مجتمعة لا تستطيع فعل ذلك. و هذا ما بينه المفكر الانجليزي المعاصر جون رايت(Wright) من خلال دراسته لظاهرتي الطلاق و الانتحار، فأسباب الطلاق- مثلا - لا تعد و لا تحصى و لا يمكن حصرها ،فإذا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أراد الباحث في هذه الظاهرة أن يدرك حقيقتها ركز في البداية على الفقر، باعتباره أداة تنهي استمرار الحياة الزوجية، لكن هذا ليس سببا كافيا، فقد يرجع الطلاق إلى أسباب ثقافية، لأن اختلاف ثقافة الزوجين قد تكون سببا في حدوث الطلاق، و قد لا يكون هذا السبب كافيا، لأن العواطف أيضا و العوامل النفسية هي الأخرى قد تؤدي إلى الطلاق و لو أستمر العالم في البحث عن أسباب الطلاق فلن ينهي هذا الأمر[5] .

يتضح بعد هذا التحليل أن إرجاع الظاهرة الاجتماعية إلى كل أسبابها أمر غير وارد ، و لو أمكن ذلك لعاشت المجتمعات دون مشاكل. و معرفة الأسباب و السيطرة عليها يسهل علينا عملية تعميم النتائج وتسريع الحركة العلمية ، وإذا كان التعميم خاصية متوفرة في العلوم الطبيعية، لأنها تتبنى المنهج الاستقرائي ـ فما يلازم ظاهرة طبيعية في مكان ما يسقط على كل الظواهر الأخرى، و الوظيفة التي يقوم بها نبات في منطقة معينة تسقط على جميع النباتات في العالم ـ فإن هذا الأمر غير وارد في الظواهر الاجتماعية، فلكل مجتمع عاداته و تقاليده و مميزاته، لذا كان التعميم غير وارد في الظواهر الاجتماعية ، و هذا ما بينه جولدنر(Gouldner) في كتابه الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي، إذ نفى وجود التعميم و ألغى مصداقيته في علم الاجتماع، و بين أن الحياة الاجتماعية متغيرة و أن العلاقات الإنسانية لا تملك جوهرا ثابتا،لأنها متباينة و مختلفة لذلك لا يمكن أن يدخل علم الاجتماع دائرة العلمية بمعناها الفيزيائي.

إن رايت(Wright) يؤكد ـ في كتابه مبادئ علم الاجتماع – تجنب التعميم أثناء دراسة الظواهر الاجتماعية بقوله " على الباحث أن يجتنب التعميمات السهلة في المسائل الاجتماعية من مثل الاعتقاد أن المستهلك يتصرف وفق قوانين المنطق "[6] .

يبدو أن التعميم غير ممكن تماما في الأبحاث الاجتماعية فهل يمكن الحديث عن التفسير العلمي في غياب التعميم ؟

إن التعميم يستلزم خصائص أخرى كالحتمية و التنبؤ ، لأن قيمة العلم تكمن في انطوائه على الحتمية لأن حتمية الظواهر تسمح لنا بتأسيس القانون، و من ثمة التنبؤ بحقيقة الظواهر في المستقبل و تعميمها في الحاضر، و العلوم التي لا شك في مصداقيتها هي تلك العلوم التي تمتاز بالحتمية و التقنين كما عبر عن ذلك المفكر الفرنسي المعاصر نافيل (Navel) بقوله « إن العلوم الأكثر صرامة التي لا يعترض أحد على طابعها العلمي هي التي تهتم بالممكن، ما هو الممكن ؟ انطلاقا من الملفوظات الهندسية من نقطة مأخوذة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من خط مستقيم، لا نستطيع أن نرسم إلاّ قائما واحدا على هذا المستقيم...و أنه يستحيل أن تتغير نسبة الأكسجين و الهيدروجين في تلوينة الماء «[7]. فهل يمكن الإقرار بمبدأ الحتمية و التنبؤ في الظواهر الاجتماعية ؟

نفى المفكر الانجليزي المعاصر جون ركس(John Rix) قدرة الباحث في علم الاجتماع على التنبؤ، لأن الظواهر الاجتماعية أكثر تنوعا و تغيرا، و لا تعرف الاستقرار كما هو الحال في الظواهر الفيزيائية، لأن الإنسان يتميز بالثقافة و الإرادة الحرة التي تدفعه إلى تغيير الظاهرة حتى في آخر لحظة و لكل إنسان أو مجتمع قوانينه الخاصة التي لا تسقط على غيره من الأفراد، و إذا كان للظواهر الفيزيائية غاية محدده، فإن السلوك الإنساني تختلف غايته من فرد إلى فرد[2]؟ فكيف لنا إذن أن نتنبأ بالسلوك البشري ؟

و يرجع عجزنا إلى عدم القدرة على التنبؤ في العلوم الاجتماعية إلى صعوبة تصور تفاعل الأفراد مع الظروف لتي يوضعون فيها، و إلى تداخل الأحاسيس والمشاعر الداخلية في توجيه سلوك الفرد و عادة ما تخفى هذه الأحاسيس و المشاعر عن الباحث، و حذر العالم الاجتماعي ريكر(Ricker)، الباحثين في الظواهر الاجتماعية من التنبؤ بالأحداث الاجتماعية، ذلك أن الأحداث التي نحاول التنبؤ بها تندرج في نسق غير معزول عن تأثير العديد من العوامل التي قد نجهلها[8].

يتضح مما سبق أن تدخل العامل البشري وفق إرادته الحرة جعل التنبؤ بالظواهر الاجتماعية في المستقبل أمر غير ممكن، و بهذا أصبح علم الاجتماع يفتقد إلى خاصية هامة من خصائص العلم و هي الحتمية، مما يجعل التفسير العلمي للظواهر الاجتماعية محلا للشك و الانتقاد.

3 ـ الموضوعية:

الحديث عن الموضوعية هو حديث عن الأخلاق كخاصية من خصائص العلماء و الموضوعية صفة يعاني علم الاجتماع من غيابها، و الحديث عن هذه الصفة يخلق هوة واسعة بين العلوم الطبيعية وعلم الاجتماع ، لأن العلوم الطبيعية تعمل وفق موضوعية و تحيز مطلق، و الباحث فيها يستطيع أن يعزل ذاته عن الموضوع الذي يدرسه ، في حين يجد الباحث في الظواهر الاجتماعية ذاته جزء من الدراسة فهو الدارس و المدروس في آن واحد .

وعبر كلود ليفي ستروس (Claude Levi Strauss) أصدق تعبير عن افتقاد العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية للموضوعية فقال " ذلك العدو السري للعلوم الإنسانية سواء على مستوى الوعي العفوي و المحايد للموضوع أو الوعي التأملي أو وعي الوعي عند العالم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"[9]. و نفى أيضا المفكر الفرنسي ميشال فوكو(M Foucault) الدقة و الموضوعية عن العلوم الإنسانية و الاجتماعية، مما جعله يرفض علمية الظواهر الإنسانية و الاجتماعية و هذا ما يظهر في قوله « لا جدوى من القول أن العلوم الإجتماعية هي علوم خاطئة، بل هي ليست علوم على الإطلاق فالتشكيلات التي تحدد وضعيتها و تجذرها في الإبستمية الحديثة تمنعها من أن تكون علوما »[10].

و تحقيق الموضوعية في العلوم الاجتماعية مرهون بتحديد العلماء لتحيزاتهم و عدم تعصبهم لكن هذا الأمر غاية في الصعوبة ومن جملة الأسباب التي تجعل الباحث في الظواهر الاجتماعية بعيدا عن الموضوعية، فقدانه لسلطة إصدار الأحكام ،لأن أغلب القرارات تفرض على الباحث من طرف رجال السلطة ذلك أن النتائج التي يقررها الباحث قد تسيء للحكم و المجتمع، لذا يجبر الباحث على تغيرها و تعديلها إن لم نقل تزيفها . و هذا ما أكده رايت الذي بين أن الباحث في علم الاجتماع يكون في أغلب الأحيان مغايرا لنتائج بحثه خوفا من السلطة[11].

إن أغلب الحكومات في العالم تعمل على التحكم في البحث الاجتماعي لبسط نفوذها لأن العلوم الاجتماعية تعتبر أداة فعالة في تحقيق السيطرة على الإنسان و المجتمع، و من ثمة فلا غرابة أن تسعى القوى السياسية إلى فرض سيطرتها و توجيهها للبحث العلمي كما أن إطلاق العنان للباحث في علم الاجتماع يعتبر تهديدا للحكم و لعلاقات الدولة الخارجية[12]. فالتصريح بالجريمة داخل المجتمع و بنسب عالية و بكل موضوعية، قد يؤدي إلى فشل السلطة في إقامة شبكة علاقات مع باقي دول العالم.

ويضاف إلى مشكلة تدخل السلطة في الدراسات السوسيولوجية مشكلة ثانية لا تقل أهمية عن الأولى ونقصد بها مشكلة الإيديولوجيا، لأن الإيديولوجيا جزء من كيان الباحث و لا شك أنها تسكن أعماقه ، لذا فإن الباحث في علم الاجتماع في غالب الأحيان سيوجه أبحاثه العلمية إلى خدمة الإيديولوجية التي يتبناها ، وبين ميشال فوكو هذا الأمر، و أكد أن كل محاولة للقيام بوصف دقيق أكثر للعلائق الموجودة بين البنية الابستيمولوجية للعلوم الاجتماعية و الإنسانية و الوظيفة الإيديولوجية أمر غير وارد تماما ، و النقص النظري الحاصل في مختلف العلوم الإنسانية و الاجتماعية إنما يعود إلى تدخل العامل الإيديولوجي، الذي أبعد هذه العلوم عن الموضوعية و الدقة المطلوبة[13].

و على هذا النحو يجد الباحث في الظواهر الاجتماعية نفسه مرغما على تجاوز الموضوعية حتى و إن كان كارها لذلك، و مرة أخرى تفتقد دراسة الظواهر الاجتماعية إلى خاصية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هامة من خصائص الروح العلمية و هي الموضوعية، و إن استطاع علماء الاجتماع أن يتجاوزوا بعض الصعوبات التي تعترضهم في دراسة الظواهر الاجتماعية فإن مشكلة الموضوعية بقيت دون حل.

4 ـ التقنين و الدقة العلمية :

غياب الوضعية في دراسة الظاهرة الاجتماعية ـ كما سابق الذكر ـ يعني بصفة حتمية غياب الدقة، و تبقى العلوم الاجتماعية احتمالية، و قد حاول العالم الرياضي الشهير فريد بوكستين،أن يطبق الرياضيات في دراسة الظواهر الاجتماعية وفي هذا يقول" لقد انتظرت أربع أسابيع و بعدها أدركـــت أن هذا لن يجدي فتيلا و سوف أصبح مجرد عالم رياضيـــات مثير للإزعاج ".يقصد بوكستين هنا أن الرياضيات إن لم ترتبط بعلم آخر فإنه لا قيمة لها، و كان العلم الآخر في نظر بوكستين هو علم الاجتماع، و قضى سنوات و سنوات في محاولة لإكساب علم الاجتماع الدقة المشهودة في الرياضيات و ماذا كانت النتيجة ؟

يقول بوكستين ـ عندما قدم رسالته العلمية عن كيفية استخدام الرياضيات النسبية العامة لقياس التغيرات الاجتماعية ـ أن الأوساط العلمية سخرت منه و قالوا: " نحن لا ندري ما هذا في الحقيقة و لكننا نعلم أنه ليس علم اجتماع، نرجو أن تفكر في شيء آخر تقوم به في حياتك !"[14].

و المقصود هنا أن تحويل الدراسات الاجتماعية إلى دراسات كمية دقيقة، يخرجها من علم الاجتماع إلى علم الإحصاء، فتفقد بذلك طبيعتها و خصائصها المميزة لها.و يضاف إلى غياب الروح العلمية في دراسة الظواهر الاجتماعية مشكل آخر، يجعل علم الاجتماع محل النقد و الانتقاد، من قبل العديد من المفكرين، هذا المشكل يتمثل في عجز العلماء في تحويل أغلب الدراسات الإجتماعية إلى قوانين علمية.

إن أغلب الذين رفضوا دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة علمية، رفضوها بحجة أنها تفتقد إلى منهج قويم، يؤدي إلى تأسيس قانون علمي عام، فكان القانون عقبة واجهت الباحثين في الظواهر الاجتماعية، رغم أن بعض المفكرين نادوا بتطبيق مناهج الفيزياء على الظواهر الاجتماعية، و اعتبروا الظاهرة الاجتماعية قابلة للدراسة مثلها مثل الظاهرة الطبيعية، و صرحوا بإمكانية التوصل إلى قانونين في علم الاجتماع و من بينهم لندبرج (Lundberg)إذ يقول " إن قوانين الفيزياء لا يقتصر تصورها على مجال تطبيقها فهي لا تصف سلوكا يحدث في أي مكان في الكون الطبيعي غير الخاضع للضبط. و باختصار

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فإن أي مجتمع يجب أن تكون له قوانينه الخاصة " [15].

إن لندبرج يذهب إلى أبعد من هذا إذ بين أن القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية تماثل في دقتها القوانين الفيزيائية. لكن هل هذه الرؤية ممكنة واقعيا ؟

رفض جون ركس(John Rix) هذه الرؤية ، ووجه عدة انتقادات للندبرج و بين أن رؤيته رؤية ميتافيزيقية لا أصل لها في الواقع. لأن التباين بين الفيزيـاء و علـم الاجتماع واضح تماما و من ثم " فقد فشل لندبرج في إدراك أن الأسئلة التي يتحتم الإجابة عنها لتأسيس هذا النوع من القوانين التي تدور في خلده، قد لا تكون الأسلة التي أدت إلى تأسيس علم الاجتماع، إن المشكلة الرئيسية هي تقرير المفاهيم العامة التي يمكن على أساسها التنبؤ بالأنساق الاجتماعية "[16] .

يريد جون ركس هنا أن ينقل لندبرج إلى الواقع، إذ أن القانون يعني التنبؤ و التنبؤ غير وارد في الظواهر الاجتماعية، و لو أمكن ذلك لما كانت المشاكل الاجتماعية، فإرادة الإنسان الحرة تقضي على كل قانون و تبطل كل تنبؤ، و أستند جون ركس إلى دراسات الفيلسوف الألماني المعاصر دلتاي(Dilthey) ليدعم وجهة نظره ،هذا الأخير أكد أن ضرورة المنهج العلمي تكمن في تأسيس القانون ، و القوانين لا أهمية لها في العلوم الاجتماعية يقول دلتاي " إن الاطرادات التي يمكن أن توجد في مجال المجتمع هي من حيث العدد و الأهمية و الدقة تتجاوز القوانين التي يمكن أن نضعها عن الطبيعة على أساس العلاقات بين الزمان و المكان "[17]. بمعنى أن الظواهر الاجتماعية متنوعة ومن الاستحالة أن نضبط كل ظاهرة بقانون خاص. ثم إن الميكانيك و الفيزياء في عصرنا هذا، لم تعد تملك الوحدة و الاتساق في المباحث كما كان ذلك في قرون ماضية، و لم تعد قواعد نيوتن صادقة على كل الأجسام و لا عامة و لا شاملة، و بقي صدق هذه القواعد مقبولا فقط على مستوى الأجسام الكبيرة . أما الأجسام المتناهية في الصغر فقد أثبتت نسبية آنشتاين أنها لا تخضع لميكانيك نيوتن . فأصبح العالم يبدوا بأسره قابلا للرد إلى اختلافات بنيوية في المكان [18]. و لا ضامن من حدوث الأمر ذاته عند إسقاط هذه القوانين الفيزيائية على الظواهر الاجتماعية و الدراسات التاريخية لا تؤكد أن المدن تجذب إليها الناس جذبا يتناسب طردا مع الكتلة و عكسا مع مربع المسافة.

و يستمر جون ركس في نزعته النقدية لتقنين الظاهرة الاجتماعية فيقول " إن بناء الفعل الاجتماعي قابل للتغير بدرجة عالية لأن غايات الفعل الاجتماعي نفسه قابلة للتغير، فهي تتميز بثراء المضمون كما أشرنا، و بدلا من إقامة علم اجتماع يهتم فقط

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ببناء عدد محدد من نماذج البناء الاجتماعي. قلنا أنه يجب أن يهتم بتشييد نماذج يمكن أن تتغير بقدر تغير الغايات التي ينشدها الناس و هم مترابطين "[19].

و عليه كان الحكم على الظواهر الاجتماعية بأنها متغيرة، فهل يمكن بناء قانون ثابت يحكم ظاهرة متغيرة ؟!

يتبين بعد هذا التحليل أن دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة علمية يصطدم بعوائق إبستمولولوجية يصعب و أحيانا يستحيل تجاوزها .

وما يزيد من تعقيد الدراسة العلمية للظاهرة الاجتماعية المفارقة بين النظرية و التطبيق .فلكل علم من العلوم جانبه النظري و جانبه التطبيقي، و الحديث عن الدقة العلمية لا يتم بعيدا عن التطابق بين الجانب النظري و التطبيقي، لأن التطابق بين هذين الجانبين يقضي على الاحتمال و يقلصه، و الملفت للانتباه أن النظرية الاجتماعية عرفت عدة انتقادات قبل أن نبينها نحدد مفهوم النظرية و يقصد بها " البناء الفكري التأملي الذي ترتبط فيه النتائج بالمبادئ أو المقدمات "[20].

و عرفها جميل صليبا في معجمه الفلسفي بقوله " النظرية قضية تثبت برهان، و هي عند الفلاسفة تركيب عقلي مؤلف من تصورات منسقة تهدف إلى ربط النتائج بالمبادئ"[21].

فهل المقدمات التي يصوغها علماء الاجتماع متناسقة مع النتائج ؟ و هل ما يبنيه الباحث في الظواهر الاجتماعية في مخيلته يتفق مع غيره من الباحثين؟ و يسقط على الواقع كما ينبغي ؟

الإجابة عن هذه التساؤلات تضع الدراسة الاجتماعية في الاختبار و تقلل من علميتها.

لقد ظهر علم الاجتماع كعلم مستقل بذاته و متخصص في دراسة الظواهر الاجتماعية ، إلاّ أن المتتبع للتعريفات التي قدمت لعلم الاجتماع، لا يعبأ أن يكتشف تعدد النظريات المقدمة من طرف العلماء و تباينها و اختلافها،و نتيجة الاختلاف وجهات النظر تعددت التصورات و تناقضت، لتخلق بذلك اتجاهات فكرية و منهجية متعددة، و تنوعت المدارس الاجتماعية بشكل ملفت للانتباه .

و بين جون ركس(John Rix) في دراسته المميزة، الخلل الموجود على مستوى النظريات الاجتماعية، و وضح موفقة من خلال انتقاداته للمدرسة البيولوجية في علم الاجتماع التي ترى أننا نستطيع دراسة الظواهر الاجتماعية كما ندرس الحيوان و النبات و هذا مستحيل في نظر جون ركس لأننا في البيولوجيا لا نجد خللا فيما نتصوره و ما نلاحظه في الواقع على عكس الظواهر الاجتماعية فليس بوسعنا أن نتبين الخصائص التي يحددها المجال

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاجتماعي، بنفس السهولة التي يعرفها عالم الأحياء، و لا يمكننا أيضا أن نقيم تصنيف نوعي للظواهر الاجتماعية، و من الصعوبة بمكان أن نعثر على بعض السمات الإمبريقية (التجريبية الميدانية)، التي تصلح للتعرف على ما هو اجتماعي على المستوى النظري. و تفطن دوركايم(Durkhiem) لهذا الأمر و صرح به، إذ بين أن الظواهر الاجتماعية تتميز بالقهر لذا لا بد أن نميز بين نظرة العالم و نظرة الملاحظ، فالنظرية في علم الاجتماع شيء و الواقع شيء آخر[22].

و هكذا كانت الدراسات السوسيولوجية فريسة للتناقض و تضارب العوامل الثقافية و الإيديولوجية و الحس المشترك، و عوامل أخرى تجعل نظريات الباحث تتعارض و تتباين مع الواقع و هذا ما جعل علم الاجتماع يخرج عن البنية المنطقية للعلم، فكان حصاده التقصير، و على هذا النحو لا يمكن استيعاب جوانب الظواهر الاجتماعية، فهي تميل إلى جانب دون الآخر و أحياننا أخرى لا تقبل التطبيق إلاّ عند من آمن بالافتراضات الفلسفية، و التزم بالحدود الإيديولوجية.

الفجوة فسيحة إذن، بين ما يتصوره الباحث في الظواهر الاجتماعية على المستوى النظري، و بين ما يشهده الواقع العلمي الميداني التجريبي أو ما يسمى الإمبريقي. إن مصداقية العلوم الطبيعية و الفيزيائية مستمدة من تكامل التفسيرات و توافق جانبها النظري مع جانبها التجريبي، و هذا ما يخلق نوعا من التآزر و التناسق الذي يقود إلى الدقة المتناهية، فالفيزياء النظرية مثلا ترسم خطى و تحدد أطر الفيزياء العملية، و الثانية تحمل اختيارات الأولى و تفعلها، على عكس ما نلاحظ في العلوم الاجتماعية التي ينعكف بعض علمائها على التجريب دون أن يبالي بالتنظير، و آخر ينظر فيخونه و يكذبه التجريب و إن غياب الانسجام المنطقي بين التنظير و التجريب في آن واحد، لهو سبب اضطراب الحدود المنطقية في العلوم الاجتماعية. « من غير الممكن تفسير العالم الداخلي انطلاقا من قوانين الطبيعة ومن المستحيل أن نصوغ علميا جوهر الإرادة الحرة التي يعترف الفرد بوجودها في نفسه بصورة لا يمكن إنكارها « [23].

و أكد رايت(Wright)على هذا التباين، مبينا أن علم الاقتصاد أو الفيزياء يستطيع أن ينظر ثم يجرب دون خوف « أما في علم الاجتماع فهناك خطر أن لا نميز في مثل هذه الفرضيات بين ما هو واقعي و ما هو متوهم و خادع «[24].

إن الباحث في العلوم الاجتماعية يصاب بانتكاسة علمية، حينما يلاحظ الفارق بين ما تخيله و افترضه و نظر له، و بين ما يجده على أرض الواقع، و كأن نظرياته

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تحولت إلى أفكار فلسفية ميتافيزيقية خالية من كل المعايير العلمية « فأصبحنا نرى العلوم الاجتماعية صنفين في منهجيتها إما تجريب مفرط و إما تلاصق مع الواقع «[25].

يظهر جليا أن علم الاجتماع رغم انفصاله كعلم قائم بذاته إلاّ أنه يفتقد بشكل واضح إلى الروح العلمية اللازمة، و دراسة الظواهر الاجتماعية بأسس علمية بقي موضوع جدل و خلاف ليس فقط بين المختصين في فلسفة العلوم، و لكن حتى بين علماء الاجتماع أنفسهم.

5 ـ تأثير الفلسفة في علم الاجتماع :

تبين لنا أن علم الاجتماع لا يزال يعاني من افتقاده لخصائص العلم، و أن المناهج فيه لا تزال قاصرة عن ضمان الوحدة و الاتفاق، و أن الاختلاف يبقى ميزة هذا العلم و الحديث عن الاختلاف يقودنا إلى البحث عن الجانب الفلسفي في علم الاجتماع، و عن حضور الفلسفة في الدراسات الاجتماعية و يمكن إثبات هذا الأمر من خلال البحث عن مواصفات عالم الاجتماع.

لا يمكن أن يكون عالم الاجتماع عالما عاديا أو شخصا يهتم ببناء القوانين و تأسيس النظريات، بل يجب أن يكون شخصية مميزة و أقل ما يمكن أن يتوفر من صفات لدى الباحث في الظواهر الاجتماعية، أن يتمتع بسلطة إصدار الأحكام في الحقل الإنساني[26]. ذلك أن الباحث في الظواهر الاجتماعية يحتاج إلى الدقة في الإحصائيات، و مصدر هذه الإحصائيات هو السلطة، و إذا لم يتمتع العالم بالتحكم في هذه السلطة فقد تحجب عنه هذه الإحصائيات، و تؤول دراساته إلى الخطأ.

إن الباحث في ـ الظواهر الاجتماعية ـ إذا أراد القضاء على مشكل اجتماعي فإنه يحتاج إلى سلطة القرار، و تأسيس النظم وفقا لما يراه مفيدا للفرد و المجتمع. و لا بد أن يكون الباحث في الظواهر الاجتماعية ذا خبرة واسعة و تجارب متعددة و على دراية كاملة بثقافة وطبائع الشعوب، و له معرفة كاملة بالموضوعات الاجتماعية كالاقتصاد و السياسة و الفن، و أن يكون كثير الأسفار و الترحال حتى يتسنى له معرفة تقاليد البلدان و المجتمعات و لغاتها، و وجب أن يتمتع عالم الاجتماع بالقدرة على الملاحظة الدقيقة و استخلاص النتائج استنادا إلى براهين كافية.

وبين رايت(Wright) أن الذين يمتلكون هذه المواصفات هم قلة قليلة، لأن أكثر الباحثين في علم الاجتماع يميلون إلى التخصص و التهرب من الدراسة الشاملة، كما أنهم يفتقدون إلى الترحال و الخبرة اللازمة، و يعتمدون على الدراسات عن بعد ، و هذا ما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يؤدي إلى ضعف أبحاثهم و نقص فعاليتها. ما يهمنا هنا: هل المواصفات التي ذكرناها سابقا هي مواصفات عالم أم فيلسوف ؟ إنها و لا ريب مواصفات حكيم فيلسوف، و كأن رايت يريد أن ينقل علم الاجتماع إلى حقل الفلسفة من جديد، فالخبرة و الشمولية هي خصائص الحقيقة الفلسفية التي لا تعرف التخصص و إن هذا الأمر يقودنا للحديث عن الفلسفة الاجتماعية، إذ أن الكثيرين يرون أن هذا المصطلح قد يعوض علم الاجتماع، و تهتم الفلسفة الاجتماعية بدراسة حياة المجتمع عموما و هي مهمة قد تكون أرقى من مهمة عالم الاجتماع لأن التجريد الفلسفي للقضايا الاجتماعية يزيدها تعقيدا و غموضا لكن يكسبها فعالية أكثر، و بين المفكر الفرنسي المعاصر مارلو بونتيMerleur) (Ponty أن لغة الفلسفة هي اللغة اللائقة للباحث في الظواهر الإنسانية و الاجتماعية[27].

وما نخلص إليه في النهاية أن النظرية الاجتماعية رغم دخولها دائرة العلم لا تزال تحتفظ بالطابع الفلسفي ، و يبدو أن علم الاجتماع يوم إرتدى ثوب العلم نسي أن يخلع ثوب الفلسفة ، وأكرر القول أن هذا ليس انتقاصا من قيمة و فعالية علم الاجتماع و إنما هو اعتراف صريح بتعقيد الظاهرة الاجتماعية و صعوبة السيطرة عليها سيطرة علمية فيزيائية ، ويمكن القول أن الفرق بين مجتمع متقدم و مجتمع متخلف ، هو قوة علم الاجتماع في المجتمع المتقدم وضعفه في المجتمع المتخلف و قوة علم الاجتماع مستمدة من قوة الطابع العلمي و الفلسفي فيه على حد سواء.

الهوامش:

1ـ كريشمان كومار: حول مصطلح المجتمع المدني On Civil Society ترجمة، عدنان جرجس، الثقافة العلمية. العدد 107 (يوليو2001) الكويت، ص 36

2ـ جمال معتوق: إسهامات المسلمين في العلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة مجلة دراسات إنسانية، مجلة صادرة عن كلية العلوم الإنسانية الاجتماعية، العدد الثاني، (2002)، جامعة الجزائر ص 257

3ـ نفسه : الصفحة نفسها

4ـ نفسه: الصفحة نفسها.

5ـ ف.ج. رايت: مبادئ علم الاجتماع،، ترجمة محمد شيا، ط3، دار الحداثة طريق المطار ، شارع مدرسة القتال،1996 ص 69، 71

6ـ نفسه ، ص 14

7ـ آن إينو: تاريخ السيميائية، ترجمة رشيد بن مالك ، د ط، منشورات مخبر الترجمة و

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المصطلح ،جامعة الجزائر و دار الآفاق،2004 ص 34، 35
8ـ جون ركس : مشكلات أساسية في النظرية الاجتماعية ، ترجمة محمد الجوهري و آخرون ، منشئة المعارف الإسكندرية ، د ت ص 56.57
9ـ علا مصطفى أنور: التفسير في العلوم الاجتماعية،، د ط، دار الثقافة للنشر و التوزيع القاهرة، 1988، ص 102، 103
10ـ الزواوي بغوره: مدخل إلى فلسفة العلوم دراسة تاريخية نقدية مع نصوص مترجمة، مطبوعـــات جامعة مـنتوري قسنطينة، 2000، ص 205
11 ـ ميشال فوكو: الكلمات و الأشياء، ترجمة مطاع صفدي آخرون، مراجعة جورج زيناتي، مطاع صفدي، د ط، مركز الإنماء القومي بيروت،1990 ، ص 25
12 ـ ف.ج.رايت: مبادئ علم الاجتماع ، ص 15
13ـ ميشال فوكو: حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، د ط ،المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، 1986، ص 175
14ـ دانا ماكنزي: شكل الجنون ، ترجمة: نادية شكري. مراجعة: ذكي خبيز. الثقافة العالمية، العدد102. 2000، الكويت ص 107
15ـ جون ركس: مشكلات أساسية في النظرية الاجتماعية، ص 56، 57
16ـ نفسه، ص 230
17ـ نفسه، ص 230
18ـ عبد الكريم اليافي: تمهيد في علم الاجتماع، د ط ، جامعة دمشق، 1964، ص 218
19ـ جون ركس: مشكلات أساسية في النظرية الاجتماعية، ص 219
20 ـ كميل الحاج: الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي الاجتماعي، مادة النظرية، ، ط1، مكتبة لبنان شركة ناشرون بيروت، 2000، ص 63
21ـ جميل صليبا: المعجم الفلسفي ،ج2، د ط، الشركة العالمية للكتاب، 1994، مادة النظرية، ص 377
22ـ جون ركس: مشكلات أساسية في النظرية الاجتماعية، ص 39
23 -Raymond Aron : La philosophie critique de l'histoire, Librairie philosophique J.Vrin.Paris. France. 1969 .p. 94 .
« il est impossible de déduire ou d'expliquer le monde intérieur à partir

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

des loi de la nature . Il est impossible de formuler scientifiquement l essence de la volonté libre dont l'homme reconnait en lui la présence irrécusable.»

24ـ ف.ج. رايت: مبادئ علم الاجتماع، ص 15

25ـ يمنى طريق الخولي: مشكلة العلوم الإنسانية تقنيتها و إمكانية حلها،ط2 دار الثقافة للنشر و التوزيع القاهر،1992د ت ، ص 116

26ـ ف.ج. رايت: مبادئ علم الاجتماع، ص 15

27ـ علا مصطفى أنور: علاقة الفلسفة بالعلوم الإنسانية، د ط، دار الثقافة للنشر و التوزيع القاهرة، 1994، ص 18، 19

قائمة المراجع :

أولا : باللغة العربية :

1ـ الزواوي بغورة: مدخل إلى فلسفة العلوم دراسة تاريخية نقدية مع نصوص مترجمة مطبوعـــات جامعة منتوري قسنطينة، 2000

2ـ آن إينو: تاريخ السيميائية ترجمة رشيد بن مالك ، د ط، منشورات مخبر الترجمة و المصطلح ،جامعة الجزائر و دار الآفاق،2004

3ـ جون ركس: مشكلات أساسية في النظرية الاجتماعية، ترجمة محمد الجوهري و آخرون، د ط، منشئة المعارف الإسكندرية، د ت.

4ـ ميشال فوكو: الكلمات و الأشياء ترجمة مطاع صفدي آخرون مراجعة جورج زيناتي، مطاع صفدي، د ط، مركز الإنماء القومي بيروت،1990

5ـ ميشال فوكو: حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، د ط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1986

6ـ ف.ج.رايت: مبادئ علم الاجتماع، ترجمة محمد شيا، ط3، دار الحداثة طريق المطار ، شارع مدرسة القتال، 1996

7ـ يمنى طريف الخولي: مشكلة العلوم الإنسانية تقنيتها و إمكانية حلها،ط2 دار الثقافة للنشر و التوزيع القاهر،1992

8ـ عبد الكريم اليافي: تمهيد في علم الاجتمـــاع، د ط ، جـــامعة دمشق، 1964

9ـ علا مصطفى أنور: التفسير في العلوم الاجتماعية، د ط، دار الثقافة للنشر و التوزيع القاهرة، 1988

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

10ـ علا مصطفى أنور: علاقة الفلسفة بالعلوم الإنسانية، د ط، دار الثقافة للنشر و التوزيع القاهرة، 1994

ـ الموسوعات و المعاجم :

1ـ جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج 2، د ط. الشركة العالمية للكتاب بيروت 1994.

2ـ كميل الحاج: موسوعة المصطلحات الاجتماعية، ط1، مكتبة لبنان شركة ناشرون بيروت، 2000

ـ المجلات

1ـ الثقافة العالمية: العدد 107 (يوليو 2001)، الكويت

2ـ دراسات إنسانية: مجلة صادرة عن كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، العدد الثاني، (2002)، جامعة الجزائر

ثانيا : باللغة الفرنسية:

1 ـRaymond Aron : La philosophie critique de l'histoire, Librairie philosophique J.Vrin. Paris. France. 1969

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com